شواش في فقه الأصول وضبابية في التنزيل

الحلقة 14

العقبة الثانية:

الانزياحات الدلالية للمفاهيم الفقهية التي تحول دون التنزيل الصحيح للنصوص على الوقائع

توطئة

من المفاهيم السياسية الطارئة التي استحدثها الفقهاء في **العصر الذهبي للحكم العباسي (132 هـ - 232 هـ)** مفهوم: "**دار الإسلام/دار الحرب**"، الذي استبدلوا به المفهوم القرآني العقائدي: **دار الإسلام/دار الكفر**، وهي ثنائية غير موفقة من جهتين:

أ) **جهة تنزيل النصوص**: حيث لا يرد مثل هذا التقابل قط في نصوص القرآن أو السنة الصحيحة الثابتة معيارياً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم,

ب) **جهة التقابل الضدي**، حيث لا تغطي الثنائية الجديدة كل طيف معاني التضاد المقابلة للإسلام.

لكن، وبالرغم من هذا القصور البين في التقابل، إلا أن هذه الثنائية الاصطلاحية المنزاحة الدلالة عن أصلها القرآني ستحكم منظور فقهاء هذه الفترة ومن بينهم: **الأئمة الأربعة** وأتباعهم لقرون بعد ذلك، سواء أكانوا من المجتهدين المطلقين، أو من المجتهدين في المذهب، أو من المجتهدين في المسائل، من دون مساءلة من فقيه أو مجتهد معتبر، وإلى قريب عهد من عصرنا الحاضر.

هذا مع أن مستجدات كثيرة جرت تحت طاحونة المجتمعات الإسلامية وغيرت في العمق من واقع المفهوم وأزاحته في المعنى عن دلالته الأصلية، سواء من جهة الشكل أو من جهة المضمون.:

أ) **فمن جهة الشكل**: نجد أن هذه المقابلة الضدية خاطئة من منطلق المقايسة، لأن ما يقابل مفهوم "**الحرب**" ويناظره في المقابلة والتضاد هو مفهوم "**السّلام**" وليس "**الإسْلام**"، واللذان لا يمثلان معاً بداخل شجرة الإسلام المتعددة الفروع والوارفة الظلال سوى غصنين من كل، لا يستنفذان الإسلام ولا يغطيانه. أضف إلى ذلك أن: "**دار السَّلام**" أو " **دار السِّلم** " وهي غصن من شجرة الإسلام، ليس لها نظير واحد مخصوص في الإسلام بل يقابلها واقعاً، وبحسب الظرف التاريخي، دور أخرى مثل: "**دار الحرب**"، و **دار الدعوة، ودار العهد، ودار الصلح، ودار الأمان**، ...وهلم جرا، وكلها تقف على صعيد واحد بإزاء: **دار الحرب**، وعلى مسافة واحدة من **دار السلم** في الإسلام.

ب) **ومن جهة المضمون**: فالمقابلة أيضا خاطئة وغير موفقة، لأنها تجعل **دار الإسلام** و**الإسلام** نفسه في **حرب شاملة ودائمة مع باقي دول العالم وشعوبها!**

وهي رؤية خاطئة تتناقض في المطلق مع صريح الكثير من النصوص القرآنية المحكمة، حال ما ورد في الآيتين 8 و9 من سورة الممتحنة بخصوص **قوم كافرين**، إلا أنهم، ومع هذا الوصف لحالهم، يستحقون **كل البر** و**كل القسط**، غير منقوصين، من طرف المسلمين:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الممتحنة: ٨ ــ ٩

والوصية الحادية عشرة في عدم الإكراه في الدين، المنضافة إلى الوصايا العشر التي خص بها أهل الكتاب، الواردة في الآية 256 من سورة البقرة:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٦

والاعتراف بحق الكافر في الاختلاف، المنصوص عليه في الآيات الست من سورة الكافرون:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون: ١ ـ ٦

ومطلق الحرية في اختيار المعتقد الذي نصت عليه الآية 29 من سورة الكهف:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف: ٢٩

وجنوح المسلمين إلى السلم في كل آن وحين، ما لم يتعرضوا لظلم أو إجحاف أو ظغيان أو مس بمقدساتهم الذي تؤسس له الآية 61 من سورة الأنفال:

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنفال: ٦١

والآية 208 من سورة البقرة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨

وغيرها من النصوص الصريحة والواضحة الدلالة.

قلت:

وواضح جلي **من النهي الرباني الوارد في الآية 9 من سورة الممتحنة أعلاه**، أن حرب المسلمين، بعد أن استقر أمر الدين، وقويت شوكة الإسلام، إنما تتجه نحو ثلاثة أصناف من الأعداء البادئين المسلمين بالعدوان وبالبغضاء وهم:

أ) **من يحاربون المسلمين في الدين**، أو:

ب) يحاولون **إخراجهم من ديارهم** أو:

ت) **يظاهرون على ذلك.**

وانضاف إليهم صنف رابع، حددته الآيات 55 – 61 من سورة الأنفال:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنفال: ٥٥ ـ ٦١

ث) أي: من لا يحترمون العهود والمواثيق.

وهؤلاء أمر الله بقتالهم رداً لعدوانهم وكفاً لشرهم على المسلمين، وليس ابتداءً بالعدوان عليهم، مادام الله جل جلاله يكره العدوان ويمقت المعتدين، أياً كانت صفتهم ونحلتهم، ولو كانوا مسلمين، كما هو صريح الآية 190 من سورة البقرة:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ البقرة: ١٩٠

قلت:

وقد خرج من هذه **القسمة الفقهية الضيزى** (بعد عزل وتحييد هؤلاء الأصناف الأربعة من المحاربين الجذريين للمسلمين، الذين للتذكير، لا ينتمون لجنس بشري محدد في أرومته، أو معين في نحلة من النحل، أو مشخص في عصر من العصور، أو بكونهم محصورين في الزمن أو الجغرافيا)، الشطر الأكبر من باقي دول وشعوب العالم، الذين لا يعادون المسلمين ابتداءً أو هم يرتبطون معهم إما **بعهود** أو **بصلح** أو **بمواثيق أمان**، وما شابه ذلك، **ممن يستحقون من المسلمين البر الأوفى والقسط المنزه عن كل غرض**، تأليفاً لقلوبهم، المنصوص عليهما في الآية 8 من سورة الممتحنة.

التأصيل لمفهوم الدار

ليلاحظ القارئ أولاً: أن مفهوم: "**الدار**" لا مُشاحة فيه، لأن القرآن الكريم ورد به في قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الحشر: ٩

ف"**الدار**" هنا، ونحن في صدر الإسلام، هي **المدينة المنورة**: "**دار الإسلام**" الأولى و"**دار الهجرة والإيمان**" في مقابل **مكة** يومها، التي مثلت قطب الشرك الطارئ على البلد الآمن، أي: "**دار الشرك**" أو "**دار الكفر**"، ليس بالأصالة مادامت تحوي البيت العتيق، وإنما بالطروء، لتغير اعتقاد الساكنة.

وليلاحظ ثانياً: أنه حتى ضمن هذه الثنائية الاستقطابية بين **دار الإيمان/دار الكفر**، فقد استثنى القرآن الكريم من واجب النصرة، **المسلمين المقيمين** في **دار الكفر**، لوجود ميثاق غليظ بين **دار الإسلام** و**ديار المواثيق والعهود والصلح**، كما هو صريح الآية 72 من سورة الأنفال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ ﴾ الأنفال: ٧٢

لذلك، فلئن تقابلت **دار الإسلام: المدينة** في الصدر الأول من جهة العقيدة، كنقيض مع **دار الكفر: مكة** ، وهي المقابلة العقائدية التامة التي تميز **الإسلام** عن نقيضه المطلق: **الكفر**، فلم تدم هذه المقابلة العقائدية الضدية سوى لفترة وجيزة من الزمن، تحولت بعدها **مكة**، بعد فتحها من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى **دار إسلام**.

وهو **تحول في اعتقاد المكيين بالدرجة الأولى**، وليس مرتبطاً ب "**مكة**" كبقعة أرض، مادامت الأخيرة سبق في علم الله ومنذ الأزل أن تكون **أرض إسلام** وقدم إليها الحنفي الأول: **إبراهيم** وابنه **إسماعيل** عليهما السلام، تحقيقاً على الأرض لهذه المشيئة الإلهية، وشيدا بها المسجد العتيق، أول بيت وضع للناس على الأرض، وظلت بكة (مكة) أرض إسلام قبل قدوم الرسول الخاتم صلوات الله عليه إليها وبعده وإلى أن يرث الله جل جلاله الأرض ومن عليها، ولن يخرجها من هذه الصفة العقائدية كأرض، طارئ، حتى لو كفر كل ساكنتها من جديد في المستقبل، مادامت ستظل قبلة لغيرهم في باقي المعمورة.

وواضح من هذه الاعتبارات أن وصف **مكة** ب "**دار الكفر**"، عُرف طارئ نشاز مرتبط بالساكنة المشركة، التي ما أن أسلمت، حتى توافقت تسمية الدار مع أصلها في الأزل.

قلت:

وبإسلام أهل مكة وانضوائهم تحت مظلة **دار الإسلام**، لم يغب القطب الثاني وهو **الكفر** من الوجود، بل ظل يراوح مكانه في كل المعمورة، في كشكولاته التمظهرية المختلفة. والذي تغير هو القطب العدواني البادئ بالعدوان، حيث أحتل مكان مشركي مكة في السابق: القوتان الإقليميتان آنذاك: **فارس** و**بيزنطة** لتتحول ديارهما أو بالأحرى إمبراطوريتيهما إلى **دارين للحرب**، زيادة على كونهما **دياراً للكفر** بالأصالة، بالرغم من كونهما أهلي كتاب، بسبب وقوفهما معاً، كل من منظوره العقائدي الخاص، ضد الدعوة الإسلامية وصدهما من أراد التحول إلى الإسلام، تماما كما كان يفعل مشركو مكة من قبل.

وهو النموذج الذي مثلته بيزنطة حين قتلت **فَرْوَة بن عمرو الجُذامي**[1] ، الذي كان والياً لها على **مَعَان**[2] في **الأردن** ظلماً وعدواناً، فقط لأنه اختار لنفسه عن قناعة أن يتحول إلى الإسلام

---

[1] قال ابن إسحاق في إسلام فروة بن عمرو الجذامي: وبعث فروة بن عمرو النافرة الجذامي ثم النفاثي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام .

فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فقال في محبسه ذلك:

طرقت سليمى موهنا أصحـابي — والروم بين الباب والقـــروان
صد الخيال وساءه ما قـــد رأى — وهممت أن أغفي وقد أبكانـــي
لا تكحلن العين بعدي إثمـــــدا — سلمى ولا تدين للإتيـــــــان
ولقد علمت أبا كبيشة أننـــــي — وسط الأعزة لا يحص لســاني
فلئن هلكت لتفقدن أخاكـــــم — ولئن بقيت لتعرفن مكـــــاني
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتـى — من جودة وشجاعة وبيـــــان

فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له "عفراء" بفلسطين قال:

ألا هل أتى سلمى بأن حليلـــها — على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل أمهـا — مشذبة أطرافها بالمناجـــــــل

فزعم الزهري ابن شهاب (ت: 125 هـ) ، أنهم لما قدموه ليقتلوه . قال:

بلغ سراة المسلمين بأننـــــــي — سلم لربي أعظمي ومقامـــــــي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء يرحمه الله تعالى.

وقد تأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمقتله أيما تأثر، ولم يكتف بذلك، بل شرع في شهر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة، بتجهيز جيش لغزو الروم، وأمَّر عليه **أسامة بن زيد بن حارثة**[3] ، وأمره أن يتوجه نحو **البلقاء** من أرض الشام، بقصد زعزعة ثقة **الروم** في أنفسهم.

وهي رسالة واضحة إلى العرب الرازحين تحت حكم بيزنطة يومها، بأن دولة الإسلام الفتية الناشئة لا تعبأ بقوتهم ولا تقيم وزناً لتفوقهم المادي.

قلت:

كان هذا آخر بعث للرسول صلى الله عليه وسلم، حيث اشتد به المرض والجيش يتريث يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، لكن ما أن لبى الرسول صلى الله عليه وسلم نداء ربه، حتى كان أول ما فعل الخليفة الأول **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه هو إنفاذ جيش **أسامة** لما انتدبه الرسول صلى الله عليه وسلم له، مع أن **الردة** كانت قد استشرت في صفوف بعض القبائل ، حتى أشار عليه بعض الصحابة، ومن بينهم **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، أن لا يبعث جيش **أسامة** ؛ لاحتياج المسلمين إليه في هذا الظرف العصيب. إلا أن **أبا بكر** لم يبالِ بتلك الآراء وأنفذ الجيش، طاعة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك.

وهو أمر سيكون له بالغ الأثر حتى على بعض القبائل التي ارتدت، لتراجع نفسها، خصوصاً بعد عودة جيش **أسامة** سالماً وغانماً في آن.

---

[2] أسسها المعينيون اليمنيون في منتصف القرن السادس قبل الميلاد لأهمية موقعها الجغرافي الواقع على مفترق الطرق التجارية. وقد ورد اسم المدينة في شعر شعراء الجاهلية والإسلام معاً، نخص بالذكر منهم شاعرين صحابيين:

أ) الصحابي الجليل عبد الله بن أبي رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي (ت: 8 هـ !) الذي أنشد أثناء نزوله ليلتين فيها قبل لقاء الروم في معركة مؤتة، التي استشهد فيها، جاء فيه:

جلبنا الخيل من أجأ وفرع تغر من الحشيش لها العكوم - ---------حذوناها من الصوان سبتا أغر كان صفحته أديم
أقامت ليلتين على معان فأعقب بعد فترتها جمـــــوم ----------فلا وأبى مؤاب لنأتينها وان كانت بها عرب وروم

ب) شاعر النبي صلى الله عليه وسلم: حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي (ت: ما بين 35 – 40 هـ) رضي الله عنه القائل:

إن الدار أقفرت بمعان------- بين أعلى اليرموك فالخمان

[3] كان أسامة شابًا، يناهز عمره الثامنة عشر فقط، وهو ما دفع بالمنافقين إلى الإكثار من القيل والقال في تأميره وتوليته أمر قيادة أول جيش إسلامي لغزو الروم، فاعترضوا، بحسب أعرافهم، على أن يقود الشاب أسامة الرجال الكبار. فلما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، خرج على الناس، وقال :إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده (رواه البخاري ، وفي رواية أخرى، أنه صلى الله عليه وسلم أمر بتنفيذ بعث أسامة ، فقال) : فأنفذوا بعث أسامة (فحسم صلى الله عليه وسلم الموقف، وأمر بالمضي في تسيير جيش أسامة.

وواضح جلي من هذه الواقعة أن **الروم** بفعلتهم الشنعاء تلك مع **فَرْوَة بن عمرو الجُذامي**، وضعوا أنفسهم، دروا أم يدروا، ضمن الصنف الأول **من أعداء الإسلام الجذريين**، الذين لا هوادة معهم، **ليس لكفرهم في حد ذاته**، مادام هذا خيار مفتوح لهم دوماً بنص القرآن، بل هو الغرض من الخليقة ونزولها أصلاً إلى الأرض وفتنتها، ليؤمن من يؤمن عن بينة ويكفر من يكفر عن بينة، والحساب والحجاج عند الله تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ هود: ١١٨ - ١١٩

وإنما لخصلة زائدة عن كفرهم وهي **محاربة دعوة الإسلام**، وبدئهم بالعدوان.

لذلك كان لزاماً على المسلمين مقاومتهم وجهادهم وقتالهم إلى أن يرعووا ويجنحوا للسلم، ويكفوا عن صد الناس عن الدين الجديد.

وهو جهاد لا محيص منه من أجل رفع وصايتهم عن الشعوب التي كانوا يحتلونها يومها، وإفساح المجال لمن هم واقعون تحت نير سيطرتهم، من شاكلة **فَرْوَة بن عمرو الجُذامي**، في أن يختاروا لأنفسهم ما شاءوا من دين، بحسب منطوق الآية 9 من سورة الممتحنة أعلاه.

وهو قتال شرعي لرفع الظلم على المستضعفين تؤيده آية صريحة:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ النساء: ٧٥

قلت:

وإلى هذه الحقبة التاريخية، والرسول صلى الله عليه وسلم مُوَدّع، لم تتغير معادلة التقابل بين **دار الإسلام** و**دار الكفر**، حيث توسعت دار الإسلام وأحتل **الفرس** و **الروم** من جهة الحرابة الموقع الذي كان يشغله في أول البعثة **مشركو مكة** من قبل، لتتحول ديارهما إلى **ديار حرب**.

وستوسع **الخلافة الراشدة** خلال الحقبة التاريخية الممتدة ما بين (11 هـ - 40 هـ) من دائرة **دار الإسلام** لتضم إليها **الجزيرة العربية** كلها والعراقين: **العربي والعجمي**، و**الشام**، و**مصر وشريط ساحلي يمتد عبر ليبيا وإلى القيروان بتونس**، كما توضح أسهم حملات الفتوح على الخريطة الأولى والبقع الملونة باللون الأخضر على الخريطة الثانية.

وواضح أن **دولة فارس**، وهي القوة الإقليمية الثانية المتنافسة مع البيزنطيين في بسط النفوذ على المنطقة والجوار (خريطة الإمبراطورية الساسانية ومناطق نفوذها إلى سنة 8 هـ/ 629 م، قبل أن يهزمها الروم ويستردوا بعض مستعمراتهم الشرقية منها) ، انمحت خلال هذه الفترة الراشدية، كما تم تحرير **بلاد الشام ومصر** من قبضة **حكم الروم**، ليظل الروم مع ذلك يمثلون **دولة الحرب** بامتياز لصدهم بعض ساكنة الشمال الإفريقي من تونس وحى المغرب الأقصى عن الإسلام إلى أن تم طردهم منها نهائياً من طرف الدولة الأموية سنة 92 هـ، كما توضح البقع الملونة باللون البني على الخريطة الثانية.

ونجد في مقابل هذه الحرب التحريرية من نير إمبراطوريتي **فارس والروم**: السلام القائم مع **إمبراطورية الصين** الأبعد شرقا، وهي حضارة مؤثلة وذات كثافة سكانية مليونية، وتستطيع حشد جنود يناهزون نصف مليون جندي في المعارك يومها، والتي حظيت، ومنذ البداية بزيارات من سفارات وبعثات عدة كانت أولاها السفارة التي بعث بها الخليفة الراشد الثالث **عثمان ابن عفان** رضي الله عنه سنة 21 هـ / 641 م برئاسة الصحابي **سعد بن أبي وقاص** (ت: 55 هـ) رضي الله عنه فاتح القادسية والمدائن والوالي على العراق، في عهد أسرة **تانغ** (Tang dynasty) الصينية التي حكمت الصين خلال الفترة (4 ق.هـ/618 م - 295 هـ/907 م)، حيث دخلها **سعد** من جهة البحر من مدينة **غوانغزهو** (Guangzhou) (صورتها المعاصرة)

الواقعة جنوب غرب الصين (الخريطة)

وأسس بها أول **مسجد** في الصين حمل اسم "**هواشينغ**": *(Huaisheng)* *(صورة لصومعة المسجد الحالي)*

، وتعني بالصينية: "**تذكروا الحكيم**" إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهي سفارات ستجدد في عهد **الدولة الأموية** (41 هـ -132 هـ) عدة مرات، ثم العباسية بعدها.

قلت:

وتذكر سجلات هذه الأسرة بدءً من سنة 95 هـ/713 م وصول المسلمين تحت اسم: "**داشي**" (***Da shi***): أصحاب البياض.

ولن تتغير ثنائية **دار السلم/ دار الحرب** إبان حكم الأمويين حيث سيوسعون من رقعة **دار الإسلام** شرقاً وغرباً، كما توضح الخريطة التالية باللون البرتقالي

، حيث حرروا المنطقة تماماً من حكم القوتين الإقليميتين السابقتين: **فارس** و**بيزنطة**.

وهي الرقعة التي سترثها الخلافة العباسية الناشئة.

وينطرح السؤال:

ترى ما الذي دفع بالفقهاء في العصر العباسي الذهبي (132 هـ - 232 هـ)، الذي عاش الأئمة الأربعة: أبو حنيفة (ت: 150 هـ)، و مالك (ت: 179 هـ)، و الشافعي (ت: 204 هـ)، و احمد بن حنبل (ت: 241 هـ) وغيرهم من نظرائهم في كنفه، **إلى إحداث إزاحة مفهومية في ثنائية: دار الإسلام/دار الكفر المتناظرة عقائدياً لتتحول إلى ثنائية قاصرة عن مدلولها الأصلي وغير متناظرة لا وضعياً ولا عقائدياً على شكل: دار الإسلام/دار الحرب؟، ويملئوا بها مؤلفاتهم الفقهية، مع أن حرب العباسيين للكفار البغاة من بين سائر الكفار، كانت محدودة في الجغرافيا، ولم تكن قائمة على قدم وساق سوى مع أعداء الجوار، وبشكل محدد مع عدو مخصوص وهو: الإمبراطورية البيزنطية، المتاخمة للخلافة العباسية، الملونة باللون البنفسجي على الخريطة أعلاه، بعد أن كان هارون الرشيد قد تخلص شخصياً وهو يقود جيشه من تهديد المغول (وهم ينضوون أيضاً ضمن المحاربين للإسلام لوثنيتهم ولتوسعهم المستمر) ل خراسان في الشرق ورمى بهم إلى ما وراء بحر آرال، دون باقي دول العالم الأقربين والأبعدين حال:**

أ) **إمبراطورية الصين : التي، على عكس هذه الشعار الحربي المتبنى من طرف الفقهاء[4]، راسل إمبراطورها "سوتسونغ" (Su-Tsung) الخليفة المنصور العباسي سنة 139 هـ/756 م طالباً منه المساعدة في القضاء على ثورة قام بها الثائر آن لوشان (*An Lushan*) ليجيبه المنصور لما طلب[5]، باعثاً له جيشا قوامه 4000 جندى، تمكن ليس فحسب من القضاء على الثورة، بل ظل أفراده في مقاطعة "يونان" (*Yunnan*) الصينية، حيث استقروا هناك وتزاوجوا مع الصينيين من قبائل "الهويتشي" *(Hui Chi)* أول مسلمي الصين، محولين أماكن تواجدهم إلى دور إسلام، بالمعنى الأقلي المعاصر: أي أوطان قابلة لاحتضان جماعة من المسلمين المحليين يعيش أفرادها في أمان في دينهم وأموالهم، بالرغم من خضوعهم السياسي على صعيد الحاكمية إلى إمبراطور الصين.**

[4] كان المسلمون قد قضوا على النفوذ الصيني في وسط آسيا في معركة حاسمة سنة 134 هـ/751 م عرفت بمعركة طالاس.

[5] لاحظ أن معركة وقعت بين الصينيين والمسلمين قرب نهر طالاس سنة 751 هـ، انهزم فيها الصينيون أم المسلمين، إلا أن هذه المعركة لم تغير من علاقات الإمبراطوريتين، كما يتضح من هذا التعاون بين الطرفين.

وقد توالت السفارات حتى أنها بلغت 28 بعثة في الفترة المحصورة ما بين: سنتي (31هـ /651 م) و (184 هـ/800 م) في حين أخذ الإسلام ينتشر عبر الصين من مراكز ساحلية مثل "خانفو" *(Canton)* نحو الداخل.[6]

ب) الامبراطوريه الكارولينجيه، (الخريطة تبين مماليك هذه الإمبراطوري الأصلية باللون الأزرق، ويمثل اللون البرتقالي ما أضافه شارلمان إلى ملكه بالغزو، بينما يمثل اللون الأصفر المناطق التي كانت تدفع الجزية للإمبراطورية. لاحظ اقتطاع الجزء الشمالي من الأندلس وإلحاقه بالإمبراطورية)، التي أصبحت ما بين سني (800- 814) **الإمبراطورية الرومانية المقدسة**، التي تبادل ابن المنصور:الخليفة العباسي الخامس **هارون الرشيد** (148 هـ - 193 هـ) بعثة مع إمبراطورها **شارلمان** (Charlemagne) (742 م – 814 م)

المتوج من طرف البابا **ليون الثالث** (795 م – 816 م) إمبراطوراً للغرب، والمدافع عقائدياً عن **الكنيسة البابوية بروما**، والذي كاد أن يتزوج بملكة بيزنطة **إيريني**، لولا وقوف البابا **ليون الثالث** ضد ذلك، لما اشتهرت به الأخيرة من سفك للدماء وقتلها لابنها وريث العرش بعد سمل عينيه، وغيرها من الفظائع الأخرى!

قلت:

وكان شارلمان قد بعث سنة 798 م بسفارة محملة بالهدايا إلى بغداد من أجل التحالف الاستراتيجي مع **هارون الرشيد** (رسم تخيلي لوفد **شارلماني** في زيارة الرشيد)

[6] أنظر لمزيد: "الإسلام في الصين" على هذا الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85_%D9%{81%D9%8A_%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%8A%D9%86
ومساجد مشهورة في الصين على هذا الرابط: http://ye.chineseembassy.org/ara/ztbd/isam/t168342.htm

وقد أرسل الرشيد في المقابل فيلين أبيضين وساعة مائية حسبها شارلمان من صنع الجن! وغيرها من الهدايا سنة 801 م، والتي لا زال بعضها محفوظاً وإلى اليوم في متاحف كل من مدن: آخن الألمانية، وسان دينيس الفرنسية، و دورهام البريطانية.

وقد حصل تفاهم بين الرجلين (الذين لم يلتقيا قط)، دون السقف الذي كان يطمح إليه شارلمان في قيام تحالف بين الإمبراطوريتين. وقضى هذا التفاهم أن على هارون الرشيد أن يشغل **البيزنطيين** في أن يهتموا بمهاجمة **الإمبراطورية الكارولينجية**، وعلى الأخيرة أن تشغل **الأمويين** الحاكمين للأندلس (منذ أن دخلها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (ت: 172 هـ/ 788 م) الملقب بصقر قريش سنة 138هـ/ 755 م وفصلها عن الإمبراطورية العباسية)، عن التفكير في استرجاع مجدهم الإمبراطوري التليد الضائع في الشرق.

وقد ردّ الإمبراطور البيزنطي الشرقي على ذلك بالتقرب من أمير قرطبة، إلا أن الأمر سينتهي سنة 812 م حين اعترف إمبراطور بيزنطة بشارلمان إمبراطوراً مقدساً نظير اعتراف الأخير بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطة.

و**للتاريخ**، فقد طبق كل طرف ما يلزمه من هذه الاتفاقية الاستراتيجية بتفان وبإخلاص، وإن ضداً على إخوان خارجين على سلطة كل منهما في العقيدة على حدة!، لأسباب سياسية وظرفية وإستراتيجية، خصوصاً وأن الخلافة العباسية، كالأموية قبلها، ظلت تعاني من خروج بعض المنشقين عليها في أطرافها النائية، حال:

أ) الأندلس التي استقل بها الأمويون،
ب) والشمال الإفريقي الذي قامت به دول للخوارج في كل من تاهرت وسجلماسة،
ت) والمغرب الأقصى الذي ظهرت به دولة الأدارسة العلويين، منذ فرار **إدريس (الأول)** بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن(السبط) بن علي ابن أبي طالب و فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم (ت: 177 هـ) إلى المغرب، بعد نجاته من الموت المحقق في الثورة التي قادها الحسين بن علي بن الحسن المثلث في ناحية مكة بمكان اسمه فخ سنة 169هـ/ 786 م، ووصوله إلى المغرب ومبايعة القبائل المغربية له، مؤسساً للدولة الإدريسية سنة 172 هـ، ليتم اغتياله بالسم سنة 177هـ /793 م، من طرف جاسوس محسوب على **هارون الرشيد**.

وقد بلغ من ضعف **الإمبراطورية العباسية** في الشمال الإفريقي أن مكن الرشيد واليه على إفريقية **إبراهيم بن الأغلب** بن سالم بن عقال التميمي (800 هـ - 812 هـ) من إمارة **تونس** والاستقلال بها في عقبه، على أن يدفع خراجاً سنوياً للخلافة.

وكل هذه الانشقاقات عن **الدولة العباسية** تولدت من **نظريات عنكبوتية في أصول الحكم** لا تتأسس على الشورى القرآنية المفتوحة على عموم المسلمين.

وهو شرخ سياسي لم يلتئم قط منذ حصول الفتنة الكبرى أيام الخليفة الثالث **عثمان بن عفان** رضي الله عنه واغتيال الخليفة الرابع **علي بن أبي طالب** كرم الله وجهه بعده، ليتحول الحكم الشوري إلى ملك عضوض مع الدولة الأموية، على نمط ما ألفت المنطقة لقرون قبل طروء الإسلام.

وتزول الجبال ولا تزول الموروثات لو لم تصحبها توعية جذرية بالإسلام ومتطلباته في الحكم.

قلت:

ومع ذلك، لا زال لبعض هذه النظريات بنات زمانها ومكانها وظرفها، والتي لا نور على منطقها والمتصادمة في المطلق مع روح الإسلام، رواج ورجع صدى وإلى يوم الناس هذا في مخيال بعض الطوائف والأحزاب، للأمية العقدية والتاريخية والسياسية المتفشية بين المسلمين.

وهي نظريات اختلط به الهاجس الشعوبي مع الهاجس القبلي وظلت دوما حبلى بالانشقاقية والتفلت النزقي، حائلة دون تأسيس "**دولة الإسلام**" على أسس شرعية وعقلانية سليمة، تستلهم نصوص القرآن وثوابت الأخبار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهو ما آن أوان تداركه ومراجعته والعمل على تخليص الإسلام من درنه والتأسيس لقيام هذه الدولة الشرعية الجامعة، كي تملأ مكانها الذي ظل فارغاً منذ سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924 م.

فلا يعقل أن تحيط قوى بليونية بمنطقة الإسلام {أنظر الخريطة أعلاه}، ويترك المجال فارغاً لبلداء فئويين، أو متكالبين بقوميات ضيقة، أو خونة جذريين ليستمروا في تمثيل عبثيتهم على مسرح التاريخ، وأرض الإسلام، والإسلام نفسه مهددان في العمق!

{أنظر على هذا الموقع: "**أحاديث في السياسة لا تصح: الأئمة من قريش**"، و"**المهدي اللا - منتظر لا عند اليهود، ولا عند الشيعة، ولا عند السنة، ولا عند البرتغال**" وبالقسم الإنجليزي: "**أسس الحكم الشوري الإسلامي**"

(*Foundations of Muslim' s Shuracracy*), (Parts; I through VI.)

قلت:

ولا شك أن هذين التحالفين مع هاتين الإمبراطوريتين القصيتين شرقاً وغرباً، اللتين يشملهما نعت "**الكفر**"، من جهة الاعتقاد المقابل ل "**الإسلام**"، تنقضان في المطلق على الفقهاء ثنويتهم القاصرة الدلالة المزاحة عن الدلالة الأصلية الأعم، بينما تُثبت سير كل من الخلفاء العباسيين: **المنصور**، وابنه **المهدي**، وحفيده **الرشيد**، أنهم بقوا فـــي التعامـــل مع **الكفار** على الأصل الأول، الوارد في الآية 9 من سورة الممتحنة، ضمن ما سمح لهم به، كل على حدة، واقعهم الجغرافي وظرفهم السياسي.

إنتهى ويليه الجزء الخامس عشر

في التعريف الشرعي لدار الإسلام